



الدولة لا تحترم العقد الاجتماعي الذي بينها وبين مواطنها، ولا تحفظ حقوقهم تجاهها، ولا تفي بالتزاماتها معهم، ولا تحفظ العهد القائم بينهما، رغم أنها موجودة لأجلهم، وقائمة بسببيهم، بحجة تمثيلهم والقيام بأعبائهم، وتمثيلهم والنيابة عنهم، وفق شروطٍ قديمة، والتزاماتٍ بين الطرفين باتت معروفة.

إلا أنها أصبحت باغيةً ومتسلطة، وظالمةً وغاشمةً، ومعتديةً ومستبدةً، وجائرةً وقاسيةً، لا تقيم العدل، ولا تتحقق المساواة، ولا تنصف بين مواطنها، ولا تهتم بمعاناتهم، ولا تقلق على أوضاعهم، ولا تسعى لتحقيق مصالحهم، ولا تبذل الجهد الكافي للتخفيف عنهم، أو مساعدتهم والنهوض بهم، وتوفير احتياجاتهم، وضمان مستقبلهم، وتأمين ضعفهم وشيخوختهم.

في الوقت الذي تنقل فيه كواهلهم بالضرائب والمكوس، والرسوم والطوابع والدمغات، بحجة توفير الدعم، وتسديد الديون، وتغطية السلسل والحقوق، وتسلح الجيش وتطوير قدراته، والدفاع عن البلاد وحماية الثغور والحدود، وتأمين الخدمات الاجتماعية والصحية والعلمية، وغير ذلك من النفقات التي تدعي الدولة أنها عامةً للشعب، وأنها تخص كل المواطنين، وتخدم لهم كل الطبقات، دون تمييزٍ أو مفاضلة.

إلا أن الحقيقة غير ذلك، فالسلطات غير منصفةٍ وغير عادلة، وهي ليست نزيهةً ولا نظيفةً، ولا تساوي بين أبنائها، ولا تعدل بين مواطنها، فهي تخدم الكبار وتهمل الصغار، وتعنى بشؤون الأغنياء وتنسى هموم الفقراء، وتدافع عن الأقوياء وتغضض عيونها عن حاجات الضعفاء، وتنتصر للطلالمين القادرين، وتدير ظهرها لمظالم البسطاء المحرورين، وتساند المعذين وتعاقب الضحايا، وتحمّل القتلة وال مجرمين، وتدين القتلى والمعذبين، وتحاسب عامة المواطنين إن أخطأوا، وتعفوا عن خاصتهم من أبناء الذوات، وأهل السلطة واليسار إن هم بغو واعتدوا، وأخطأوا وأساؤوا.

وهي التي تخلق بين مواطنها العداوات والخصومات، والاختلافات والتناقضات، وتجعل بينهم فوراً وفواصل، وتصنفهم طبقاتٍ ومنازل، وأسياداً وعبيداً، وسراً وعراءً، وخداماً وخدميين، ما يخلق في المجتمعات شروخاتٍ وانقسامات، ويولد

عداواتٍ وأحقاداً، ويضعف الإخلاص والولاء، ويفقد الانتقام والانتساب، ويدفع المواطنين للاهتمام بشؤون، والانشغال عن الوطن بحاجاتهم، وهو الأمر الذي يسهل الاختراقات والارتباطات، ويمكن الخصوم من الولوج إلى الدول والتجسس على السلطات والحكومات.

شوارع الأغنياء مرصوفةٌ ومنارة، ونظيفةٌ ومشجرة، وواسعةٌ وعريضة، وفيها ممراتٌ وأرصفة، محددةٌ منازلها ومرقمة، ومحروسةٌ أحياؤها ومحمية، ومنظمةٌ أبنيتها ومساجة، ومرتبةٌ مساكنها وجميلة، كثيرةٌ حدائقها مزданة، ومخدمةٌ مرافقتها بانتظامٍ دائمٍ، فلا تقطع عنها الكهرباء ولا خدمات الاتصالات ومياه الشرب، ولا تجتمع قمامتها في الشوارع، ولا يغيب عمال النظافة عنها، ينظفون شوراعها، ويرشون أماكن القمامات بالمبيدات والمطهرات، ويتفقدون العيوب، ويصلحون الطرقات، ويلبون كل اتصال، ويستجيبون لكل نداء، ويهبون لإنقاذ كل مستغيثٍ ومحاج، ولا يتأخرون عن حالةٍ أو إسعاف، ولا عن طارئٍ ومفاجئٍ.

بينما ترك طرق الفقراء مظلمة محفورة، منبوشة كالقبور، ومبعرة كالأشلاء، رمليةٌ غير مرصوفة، أو طينيةٌ موحلة، يعج غبارها الخافق، ويتطاير في سمائها القش والأوراق، والنایلون والأكياس، وغيره مما خف وزنه وكثُر في الشوارع والأزقة والطرقات، وتتوزع القمامات كيما اتفق، في الشوارع والأزقة، دون حاوياتٍ أو مجمعات، في الصيف أو الشتاء، التي تحوي كل قذرٍ ومنتن، وفيها حيواناتٌ نافقة، وفضلاتٌ آدمية وحيوانية، وغير ذلك مما يولد رواحٍ خبيثةً وسيئةً، تكاد تختنق الأنفاس، مع ما تحمل من أوبئةٍ وأمراض، وما توفر من بيئاتٍ مناسبة للذباب ومختلف أنواع الحشرات القارصة والضارة.

الدولة عن هذه الأحياء غافلة، وعن حاجات السكان نائمة، لا تغيرهم اهتماماً، ولا تفكّر بهم، ولا تقلق عليهم، ولا يعنيها مصيرهم، ولا تسعى لمساعدتهم، ولا تبذل أي جهدٍ لاستقاذهم، ولا يهمها ما يصيّبهم من أمراض، أو يلحق بهم من أذى، فهذه المساكن، إن صح أن يطلق عليها اسم مساكن، فإنها عشوائية، أو هي مخيماتٌ وتجمعاتٌ سكنية، يسكنها الفقراء والمعوزون، والعامل والفالحون، والخدمة والفنيون، ممن يقومون بأعمال الخدمة، و يؤدون مهاماً يراها غيرهم وضيعة، وإن كانوا لا يستطيعون العيش بدونها، أو الاستمتع بالحياة بغيرها، ومع حاجتهم لهم، فإنهم يهملون أمرهم، ولا يعنون بشؤونهم. تخطى الدولة أو السلطة عندما تفرق بين مواطنين، وتمايز بينهم، وتكرس واقع الطبقية عندهم، فتعقد أن بعضهم مكرمين معززين، أو هكذا الله خلقهم، صنفاً آخر، وطرازاً مختلفاً، فهم أهلٌ للخدمة والرفة، وأنهم يستحقون الاهتمام والتقدير، والعناية والإكرام، وأنه لا يجوز التقصير معهم، أو التأخر عن خدمتهم، فهم واجهة الدولة، وعنوان المجتمع، وصورته الجميلة لدى العالم، وسمعتهم المتقدمة بين الأمم.

بينما غيرهم ليسوا إلا عبيداً للخدمة، وآلاتٍ للعمل، فلا يضير إن هي أساءت معاملتهم، أو أخطأوا في حقهم، أو قصرت في خدمتهم، أو تأخرت وتوانت عن نجدهم، ولم تعجل في الاستجابة إلى شروطهم، وتلبية حاجاتهم، إذ يجوز إهمالهم، ويمكن التقصير معهم، لأنهم أهل البلاد الأصلاء، وسكانه الشرفاء، والأقدر تحملأً للعنّت والمعاناة، والأصبر على الظروف وتمرير الصروف.

بل لأنهم بمفهومهم، لا يستحقون بذل المزيد من الجهد لأجلهم، فهكذا قد خلقهم الله وأرادهم، وأردوا حياتهم وأركس عيشهما، إذ يكفيهم مكانٌ فيه ينامون، وقصعة منها يأكلون، وكوباً فيه يشربون، وبعض أسمالٍ بالية بها يتذرون أو يتسترون، ولا شيء آخر تتكلف به تجاههم، فلا تأمين صحي، ولا ضمانةٍ شيخوخة، ولا معاشاتٍ تقاعد، ولا دعمٍ لتعليمٍ، ولا شيءٌ مما يشعر الإنسان بطمأنينةٍ على مستقبله، وستره كريماً في آخر أيامه.

يدعى البعض أن الدولة أو السلطة لا تقصّر تجاه مواطنينها، ولا تتأخر عن مساعدتهم، بل إنها تنفق مبالغ كبيرة من ميزانيتها، لتغطية نفقات الطبقات الفقيرة، فتندعم السلع الأساسية، وتُشَرِّح فاتورة الهاتف والماء والكهرباء، بما يجعلهم يدفعون الحد الأدنى، وتقدم لهم خدماتٍ كثيرة، وتخفف من نسبة ما يجني منهم، وتتوفر لهم خدماتٍ صحية عديدة في المستشفيات

والمصحات الحكومية، وقد تعفيهم من كثيرٍ من نفقات العلاج، وغير ذلك من الخدمات التي تراها مخصصة لهم. السلطة تعلم أنها طبقية وتكتذب، وأنها تنفق على الأغنياء أضعاف ما تنفقه على الفقراء، وتعطي القادرين ما لا تعطيه للقراء المحتاجين والمعوزين، ثم يستغربون، لماذا الثورة، ولماذا يسعى المواطنون إلى اللجوء والهجرة.

المصادر: